الملامح البلاغية والنقدية في :

كتاب « العمدة » .. « لابن رشيق القيروانى »

د. عبد الفتاح محمد سلامة
أستاذ مساعد ورئيس قسم البلاغة والنقد

كانت القيروان في القرن الخامس حاضرة أفريقيا الزاهرة بضروب العلم والادب والفن في عصر المعز بن باديس وابنه تميم ، وكانت تنافس حواضر المشرق والاندلس بما جمعت من العلماء والشعراء .. (١) ..

والى هذه المدينة الفيحاء ينتمى « ابو على الحسن بن رشيق القيروانى » ... الذى ولد بالمحمدية سنة ٣٩٠ هـ .. وقرأ الادب على علماء القيروان ، واتصل بالمعز ابن باديس صاحب القيروان ، ثم انتقل الى جزيرة صقلية ، ولم يزل بها حتى مات سنة ٤٦٣ هـ .

وتعددت جوانب ابن رشيق الادبية والعلمية ، فهو شاعر ناقد مؤرخ ، نغوى ، ولكن غلب عليه جانبا الشعر والنقد ، وله ديوان شعر كبير ، تناقل كثير من المؤلفين بعض قصائده في موضوعات مختلفة ...

ولا يختلف شعره كثيرا عن شعر معاصريه في موضوعاته ، فهو يغرق في المديح والتملق والمبالغة في صفات الممدوح ، مع اصطناع الظرف احيانا ، والمبادرة الى القول فيما يعرض من موضوعات او يقترح في المجلس الى جانب الغزل بالمؤنث والمذكر ، ووصف الخمر والروضيات ومجالس اللهو ... (٢) ...

---

(١) تاريخ النقد العربى ج ٢ ص ١٣٠ . د. زغلول سلام .
(٢) تاريخ النقد العربى ج ٢ ص ١٣٠ د. زغلول سلام .

وكان ابن رشيق واسع الاطلاع والمعرفة بعلوم اللغة وأسرارها، واما معرفته بالنقد فقد ألم بكثير من كتب القدماء كطبقات الشعر لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، كما قرأ بديع ابن المعتز وعيار الشعر لابن طباطبا ، وتعرف على نقد الشعر لقدامة بن جعفر كما قرأ نكت الاعجاز للرماني ، وقرأ الموازنة للآمدي ، والوساطة للقاضي الجرجاني ...

أما كتاب « العمدة » فهو يعد بحق عمدة دراسات الشعر في هذا القرن ... وقد قال عنه « ابن خلدون » : « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة ، واعطاها حقها ، ولم يكتب احد فيها قبله ولا بعده مثله .. » ..

وابن رشيق بهذا الكتاب : « قد نقل النقد من المشرق الى المغرب ، وان النقد بعد العمدة لم يعد حكرا على علماء العراق أو الشام » ...

ويبدأ « ابن رشيق » كتابه « العمدة » بمقدمة يعلن فيها ان الناس اختلفوا في الشعر ، ووقف كل منهم منه موقفا خاصا ادلى فيه برايه ، وأنه وقف على كل ما قيل في الشعر ، وما بذل من محاولات وجهود في فهمه ونقده وتبويبه ، واطلع على مذاهب العلماء فجمع اراءهم ونسق بينها وهضمها ، واختار منها ما كان سديدا في رايه فصار هذا الكتاب ...

ويشرح بعد ذلك منهجه فيقول : انه يأخذ اكثر تلك الآراء فينسبها الى قائليها او الى الكتب التي اخذت عنها ، وما خلا منها من السند ، أو ذكر اسم الكتاب فهو راي خاص به او رأي مشهور متداول بين النقاد والعلماء ، ليس لواحد فيهم فضل فيه ..

ثم ينبه أنه اهتم في كتابه ببيان صواب الراى فلا يترك ناشئة الادب في حيرة امام ما يجمع من حشود وآراء ...

وقسم الكتاب الى قسمين كبيرين : احدهما دراسة عامة حول الشعر وفنونه وموضوعاته .. وهذا القسم يعرض للشعر من حيث : « انه علم وانه ديوان العرب ، وصوان حكمتهم ، ومجلى مآثرهم »..

ويعرض في هذا القسم فضائل الشعر ، ودفاعه وعن الشعراء عامة ، وعما قيل عن حملة القرآن على الشعر والشعراء ، ثم يخلص من هذا الى اثر الشعر في الحياة ، ومكانة الشعراء في الجاهلية والاسلام وما كان من الاحداث الجليلة التى اتصلت به ، ثم يحدثنا عن آثار الشعر في النفوس من استنهاضه للهمم ، واحتماء القبائل به ، وذودها الاعداء ، والتفاؤل ...

ويحدثنا بعد ذلك عن الشعراء قدماء ومحدثين ، وخصائص شعر كل منهم ، وعن الطبع والصنعة وعن المقلين والمكثرين من الشعر.

وفي موضوعات الشعر يحدثنا عن اقسامه التى تعود علماؤه تقسيمه اليها كالمديح والهجاء ، والنسيب والعتاب ، والوصف والرثاء ...

وأما القسم الثانى من الكتاب فيتعلق بفن الشعر من حيث بناؤه ، وألفاظه ، واساليبه ومعانيه واوزانه وقوافيه ، ويبين لنا في هذا الباب آراء من سبقه من النقاد كقدامة ، والآمدى ، والرمانى والقزاز ...

ويفصل القول في البديع وأقسامه ، والسرقات وابوابها ، ويختم الكتاب بباب لاحق تحدث فيه عن ايام العرب .

غير أنه يلاحظ على ابن رشيق عدم التزامه بالمنهج الذى رسمه لنفسه ، فقد كان يحيد عنه أحيانا ، كأن يدخل في القسم الاول ما كان ينبغى أن يوضع في الثانى ، وكذلك العكس ، ثم نراه يقدم ويؤخر ٠

واهتم ابن رشيق باظهار الاتجاهات الجديدة في الشعر المحدث والتنبيه عليها وعلى ماجدده المولدون والمحدثون ، وترى هنا الاهتمام واضحا في عدة ابواب اولها هذا الباب الذى عقده في التفضيل بين الشعراء والكتاب ، وبين الشعر والكتابة ، ثم في الكلام عن المحدثين والمولدين ، وأصحاب البديع ، والكلام عن الطبع والصنعة والبديع ، والاوزان المستحدثة التى اخترعوها ٠٠٠

وابن رشيق يتفق مع النقاد الذين يأخذون بمذهب طريقة العرب في الشعر كالآمدى ، ومخالفا لغيره من النقاد المتأخرين كابن الاثير ، ومدار هذين الاتجاهين حول مفهوم الشعر وغايته ، والتجربة الشعرية والعقلية ، ومدى امكانية تعبير الشعر عن التجربتين معا أو التوفيق بينهما ، أو الاختصاص بواحدة دون الاخرى ٠٠٠

وهل المقصود من قول الشاعر الشعر : افادة معرفة جديدة ، أو أن يعبر عن احساس وشعور ، فيكسب السامع تجربة جديدة من الاحاسيس والمشاعر ، دون قصد ان يفيده في الحياة فائدة مادية أو عقلية أو اخلاقية ٠٠٠

« ولعل الجدل حول هذا الموضوع كان أثرا من آثار الفلسفة اليونانية في الادب والفكر العربيين ، ولتغلغل الفكر اليونانى والروح الفلسفى في شعر شعراء وكتابة كتاب القرنين السابقين ٠٠ » (١)

---

(١) تاريخ النقد العربى جـ ٢ ص ١٣٥ د٠ زغلول سلام ٠

ولقـد وقف « ابن رشيق » من البديع موقفا معتدلا ، حيث أورد كثيرا من ابوابه مع التفصيل والشواهد ، يقولّ : « وكذلك يجب الا يكون الشعر استعارة وبديعا كشعر أبى تمام ، فقد رأيت ماصنع به » « ابن المعتز » ، وما ألف عليه المتعقبون كالجرجانى والآمدى وغيرهما ثم يقـول : ككثير من شعر أشجع واشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة »

ويقف كذلك من القـدماء موقف الاعزاز والتقدير ، ويقدمهم جملة ، وعندما يعرض للمحدثين والمولدين لا يفعل ذلك ، بل يصنفهم طبقات تبعا للصنعة والطبع والاقتدار على الشعر ،ووفق أمزجتهم واذواقهم

وهو معجب بكثير من المحـدثين من أمثال : أبى نواس وأبى تمـام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى والمتنبى ...

ويتصدى لجماعة من معاصريه من الشعراء ومن سبقهم بقليل مـن شعراء المغرب والاندلس ، فيشير الى فن كلّ منهم ، عندما تلوح مناسـبة ...

ويقسم الشعراء قدماء محدثين الى طبقات أربع حسب ازمانهم ، فيقـول : « طبقـات الشعراء أربع : جاهلى قديم ، ومخضرم ، وهو الذى ادرك الجاهلية والاسلامية ، واسلامى ، ومحدث ... ثم صـار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدريج وهكذا في الهبوط الـى وقتنا هـذا ... » ...

وبعد أن يشيد بالشعراء القـدماء ويعلى من مكانتهم ... لايستطيع أن يخفى نفسـه وحقيقة أمـره طويلا : يسوق اعجـابه بالمحدثين وطريقتهم في اعماقـه ...

ويذهب « ابن رشيق » متابعا في ذلك : « لعبد الكريم النهشلى » ـ الى ان الشعر يتأثر بعوامل ثلاثة : المقام او الحال ، والزمن أو العصر ، والبلد أو المكان والبيئة ...

ومع اقتناعه بهذه الاصول الثلاثة ، يستدرك على عبد الكريم زائدا عليه قاعدة عامة ، أكثر شمولا ، وهى الجودة أو الحسن المطلق الذى يخضع له القديم والحديث جميعا وفي كل مكان يقول : « ولم يتقدم امرؤا القيس والنابغة والاعشى الا بحلاوة الشعر وطلاوته مع البعد عن السخف والركاكة ، على انهم لو أغربوا لكان ذلك مقبولا عنهم اذ هو طبع من طبائعهم ... فالمولد المحدث من الشعر على هذا اذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع انه أرق حوكا ، وأحسن ديباجة .. » ...

وهذا استدراك وجيه منه ، اذ أنه يرى الشعر كغيره من الاشياء المتعلقة بالانسان تتطور بتطوره ، وتخضع لما يخضع له من ظروف العصر والبيئة والمقام ...

ويحدث « ابن رشيق » عن قضية اللفظ والمعنى ، وهو حديث مكرر ومعاد يجمع فيه آراء سابقية كالخطابى والجاحظ وأبى هلال العسكرى ... يقول :

« واكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ،سمعت بعض الحذاق يقول : قال العلماء اللفظ اغلى ثمنا ، واعظم قيمة ، واعز مطلبا ، فان المعانى موجودة في طباع الناس ، يستوى الجاهل فيها والحاذق ولكن العمل على جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف » ..

ويقف « ابن رشيق » موقفا وسطا لايفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ ، ولا يفصل بينهما ويشبههما بالروح والجسد ،

وان كـان هـذا التشبيه على تلك الصـورة والتفصيل مردودا في كثير من الحـالات ...

وحين يتكلم عن المعنى يعنى بالضرورة معنى العبارة ، أو معنى بيت الشعر ووحدة الكلام نثرا أو شعرا ، وليس قصده باللفظ المفرد ، بل قصده لفظ العبارة في تركيبه ... وحين يشير الى من فضلوا اللفظ على المعنى فانما يعنى غالبا جمهرة علماء العربيـة السـابقين أمثال الجاحظ وابى هـلال ...

والجاحظ حين يطلق القول بتفضيل اللفظ : فانما يقصد العبارة البيانية المنمقة ، أو التعبير السليم ، وكذلك يريد أبا هلال حين يتبع راى الجـاحظ ، وان كان يميل الى العبارة المحلاة بضروب البديع ... « ونلاحـظ ان جماعة المفضلين للفظ كانوا من اللغويين وعلماء العربية على اعتبار أن الشعر القديم أسلم لفظـا سبكا ، وأصح تركيبا من شعر المولدين ، وان جـدد المولدون في المعانى ، وان خاصة العـرب التى بها افتخروا : البيـان باللسان ، واللفظ الفصيح .. » .. (١) كذلك كان تفضيل علماء العربية للفظ على المعنى اعتبارا للفائدة اللغوية ، واهتمامهم بالشاهد الذى يراد فيه سلامة اللغة والاقتراب من لغـة القرآن ...

اما الاهتمـام بالمعنى فمرده الى المولدين لتقصيرهم في جانب اللفظ عن القـدماء ، ومن ثم تبعهم الاعاجم ، وقـد أصر عبد القاهر على أهمية المعنى دون اللفظ وحـاول جاهدا في كتابيه ارجاع كل فضيلة الى المعنى ... (٢)

---

(١) تاريخ النقد العربى جـ ٢ ص ١٥٦ .
(٢) تاريخ النقد العربى جـ ٢ ص ١٥٦ .

واذا كان كتاب « العمدة » لابن رشيق يعنى بصناعة الشعر في المقام الاول : فاننا نلمس فيه من الجوانب البلاغية والنقدية : تلك الفنون البديعية التى ذكرها مستقلة عن البديع ، وما أدرج تحته من الوان ومن ذلك : المقاطع والمطالع – والمبدأ والخروج – والتخلص من معنى الى معنى ...

« ولهذا يعد كتاب « العمدة » من أهم المراجع التى يعتمدها الباحثون في علم البلاغة عند العرب ، كما يجدون فيه اشارات واضحة الى الكتاب والمؤلفين في البلاغة وما استطاعوا أن يستخرجوه من فنونها وما وضعوه من ألقابها ومصطلحاتها .. » (١)

ويلاحظ ان ابن رشيق في تناوله لهذه الفنون البديعية : انما يتناولها من خلال آراء السابقين عليه ... وقد يضيف الى ذلك جديدا من عنده ...

فهو في حديثه عن البديع وفنونه ، يذكر أن أول من صنف فيه « ابن المعتز » : ونراه يستهل فنونه بالمجاز ، ويذكر بعض حديث « ابن قتيبة » عنه ، وهم انما أراد به : طرق القول التى تحتاج شيئا من التأويل ، ويؤكد أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولا يلبث ان يقول : ان البلاغيين خصوا به بابا بعينه وذلك : « ان يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب .. » .. وينشد من أمثلته قول الشاعر :

اذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

اذا اراد بالسماء : المطر لقربه منها ، وقال : رعيناه ، والمطر لايرعى ، ولكنه أراد النبت الذى يكون عنه ، فهذا كله مجاز ... ويذكر منه

---

(١) البيان العربى ص ١٨٢ د. طبانة .

قوله تعالى : « واسأل القرية ٠٠ » (١) ٠٠ ومثل « ليلة ساهرة » ٠٠ اى يسهر فيها الناس ٠٠٠

ولقد أدخل البلاغيون المتأخرون المثالين الاولين : في باب المجاز المرسل ، والمثال الثالث في المجاز العقلى ٠٠٠ على أن الباب لم يتضح في نفس ابن رشيق ، فقد ادخل فيه أمثلة من الاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز المرسل والعقلى ، وأخرجوا التشبيه لان ركنيه وهما المشبه والمشبه به حقيقيان ٠٠٠ ولكن على كل حال : « هذه أول نظرة دقيقة للباب ، فقد كانت كلمة المجاز تلتقانا قبله منذ الجاحظ دون تحديد دقيق لما تصدق عليه من صور البيان ٠٠ » (٢)

ويعقد « ابن رشيق » فصلا للاستعارة ، ينقل فيه عن « على بن عبد العزيز الجرجانى والرمانى والحاتمى وابن وكيع المصرى » ٠٠٠ قارنا صورا من الاستعارة التصريحية الى أخرى من المكنية ، ويفرد فصلا للتمثيل متابعا في دلته « قدامة بن جعفر » ويقول : ان بعضهم يسميه المماثلة ، ثم يضيف اليه فصلا عن المثل السائر ٠٠٠ ومعروف أن البلاغيين يدخلونه في التمثيل أو الاستعارة التمثيلية ٠٠٠

ثم يتحدث « ابن رشيق » عن التشبيه ، مستمدا فيه من « الرمانى وقدامة والجرجانى » ويفيض في باب الاشارة ويدخل فيها التعريض والكناية والتعمية ٠٠٠

وهو في ذلك : أدق من ابى هلال العسكرى صاحب الصناعتين ، الذى أفرد عنها كثيرا من أقسام الكناية بينما كان ينبغى أن يسلكها فيها ٠٠٠

---

(١) يوسف : ٨٢ ٠

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٨ ٠ د٠ شوقى ضيف ٠

وبخرج الى التجنيس ، ويذكر أقسامه عند « على بن عبدالعزيز الجرجانى وغيره » ٠٠ مضيفا أقساما جديدة ، وهى أقسام تحولت عند المتأخرين ـ حين شعبوا فنون البديع ـ الى فنون مستقلة ، وقد فرع منها ما سماه « الترديد » ، وهو نفس ما سماه ابو هلال باسم « المجاورة » ٠٠ وسمى رد الاعجاز على ما تقدمها عند ابن المعتز باسم « التصدير » ٠٠٠

وتحدث عن الطباق والمقابلة والتقسيم وأدخل فيه الترصيع ٠٠ وسمى التوشيح عند قدامة ، كما تحدث عن الاستطراد ناقلا فيه عن الحاتمى ٠٠٠ وتحدث عن « الالتفات » موردا كلام قدامة وابن المعتز فيه ٠٠٠ وتابع أبا هلال العسكرى في تسمية توكيد المدح بما يشبه الذم باسم « الاستثناء » ٠٠٠ وتابع « قدامة » في التتميم الا أنه أشار الى أن ضربا منه يسمى « احتراسا » ٠٠ كقول طرفة ٠

فسقى ديارك ـ غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

وتحدث عن المبالغة والغلو ، وأورد اختلاف النقاد والبلاغيين فيهما ، بين مستحسن ومستقبح ٠٠٠ وانتقل الى الايغال كما صوره قدامة والعسكرى ٠٠ وقال : ان الحاتمى وأصحابه يسمونه « التبليغ » ٠٠ وتسمية « قدامة » : أدق : ولقب ما سماه ابن المعتز تجاهل العارف بلقب « التشكك » ومثل له بقول زهير :

وما ادرى وسوف اخال أدرى أقوم آل حصن ام نساء

ونراه يقطع حديثه في فنون البديع ليتكلم عن الحشو واستدعاء القوافي ٠٠ « وكأنما فتح هذين البابين ليصحح الموقف ٠٠» (١)

---

(١) اعجاز القرآن ص ١٣٦ ٠ شرح د٠ خفاجى ٠

فمن الحشو ما هو مستحب كقول ابن المعتز في وصف خيل :

صببنا عليها ـ ظالمين ـ سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

وهو احتراس واضح كبيت طرفة انف الذكر ، وكان حريا به أن ينحيه عن الحشو ، وكأنه أحس ذلك فاستدرك على البيت قائلا : انه شبيه بالتتميم ، وهو من صميمه حسب اصطلاحه واصطلاح من أخذ عنهم .. وجعل من فنون البديع « التكرار » .. متابعا في ذلك « لاحمر العسكرى » .. و « الباقلانى » يصرح : بأنه من البديع ويمثل له بقوله تعالى :

« فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » (١) ..

وتحدث « ابن رشيق » عن المذهب الكلامى ، وصرح بأنه نقله عن « ابن المعتز » وفتح بابا سماه : « نفى الشىء بايجابه » .. وقال : انه ضرب من المبالغة مثل قول القائل : « سرت على طريق لايهتدى بمناره » .. وهو لايريد أن له منارا لايهتدى به ، ولكن يريد أنه ليس له منار البتة .. وفتح بابا ثانيا لما سماه « الاطراد » .. وأراد به تطرد أسماء آباء الممدوح من غير تكلفة ، وذلك كقول الأعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وانت امرؤ ترجو شبابك وائل

وتحدث عن « التضمين » مستمدا من « ابن المعتز » .. وقال انه « قصدك الى البيت من الشعر أو الشطر فتأتى به في آخر شعرك أو وسطه » ..

---

(١) الانشراح : ٥ ـ ٦ .

وأشار الى المعنى الثانى المتضمن ، والذى أشار اليه « الجاحظ » وهو : « تعليق القافية بأول البيت الذى بعدها » ٠٠ وعرض هنا للاجازة : وهى : بناء الشاعر شطرا على آخر لشاعر غيره ، أو بناؤه بيتا على بيت لزميل له ٠٠٠

كما عرض « ابن رشيق » للتمليط وهو : أن يتساجل شاعران ، فينشيء أحدهما شطرا أو بيتا ، ويكمل الثانى الشطر أو البيت ٠٠٠ وعد من البديع ما اسماه باسم : « الاتساع » ٠٠ وهو ان يكون البيت فيه من الامتداد في معناه ما يجعله يؤول تأويلات مختلفة ، فكلما تأمل فيه ناقد أو شارح استنبط منه معنى جديدا » ٠٠٠

وهى ملاحظة طريفة (١) ٠٠٠

وتحدث « ابن رشيق » : عما سماه : « الاشتراك والتغاير » ٠٠ وهما ضربان من ضروب السرقات الشعرية المستحسنة ، وكان حريا به أن يؤخر الحديث عنهما الى الباب الخاص بالسرقات ٠٠٠

على هذا النحو تناول « ابن رشيق » : « فنون البديع » ٠٠ وواضح انها كانت تضم في عصره الصورة البيانية ٠٠٠ وأهمية دراسته لاترجع الى الفنون القليلة التى أضافها منوها بها ، وهى الاتساع والاطراد ونفى الشيء بايجابه والترصيع والترديد والتتبيع ٠٠ وانما : « ترجع الى أنه استوفى قراءة اكثر ما سبقه من مصنفات ، ونص في مواضع كثيرة على المصنفين الذين استمد منهم ، وقارن بين آرائهم وأشار الى اختلافهم أحيانا في القاب بعض المصطلحات » (٢) ٠

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٥٠ د٠ شوقى ضيف ٠
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٥١ ٠

تلك أهم السمات البلاغية والنقـدية التى حواها كتاب « العمدة في صناعة الشعر ونقده » لابن رشيق القيروانى ....

وهى كما نرى : خالية من ملامح التجديد ، ونواحى الابتكار الا في القليل النادر .. ومع ذلك فقـد ظل كتاب « العمدة » رافدا غزيرا ، استمد منـه العلماء والبلاغيون في كل ما عالجوه من الدراسـات البـلاغية والقضايا النقـدية ... يقول « ابن خلدون » : « وممن ألف في البديع من اهل أفريقية « ابن رشيق » وكتاب « العمدة » لـه مشهور » (١)

د / عبدالفتاح محمد سلامه
رئيس قسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية ـ جامعة الازهر
بأســـيوط

(١) المقدمة ص ٥٥٢ .